الفصـــل الأول (تمهيـــدى)

حول خطة علمية لدراسة المعتقدات الشعبية

الفصل الأول

(تمهيـــــدى)

حول خطة علمية لدراسة المعتقدات الشعبية

أولا ــ خصائص المعتقدات والمعــارف الشعبية :

أوضحنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب(١) أن صفة « الشعبية » هنا تدل على ما تدل عليه فى عبارة « الأغانى الشعبية » أو « العــادات الشعبية » الخ ، أى أننا نقصد المعتقدات التى يؤمن بها الشعب فيمــا يتعلق بالعالم الخارجى والعالم فوق الطبيعى • وليس من الأمور ذات الأهمية الرئيسية ــ مع أننا نوليها عنايتنا عند الدراسة وفى التحليل ــ ما اذا كانت هذه المعتقدات قد نبعت من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف أو الرؤية أو الالهام ، أو أنها كانت أصلا معتقــدات دينية ــ اسلامية أو مسيحية أو غير ذلك ــ ثم تحولت فى صدور الناس الى أشكال أخرى جديدة بفعل التراث القديم الكامن على مدى الأجيال ، فلم تعد بذلك معتقدات دينية رســمية بالمعنى الصحيح ، أى أنهــا لا تحظى بقبول واقرار رجال الدين الرسميين • وقد كان الشــائع أن يطلق عليها فى الماضى اسما ينطوى على حكم قيمى واضح ، اذ كانت تسمى خرافات أو خزعبلات(٢) • ومن الواضح أن هذه التسمية كانت صادرة من رجال الدين الرسمى ، ســواء فى الخارج أو عندنا • لأن المعتقدات التى تدور حول هذه الموضوعات الغيبية ، ولا تتفق وتعاليم الدين الرسمى ، لا تستحق من وجهة نظر أصحاب هذا الدين اســم « معتقدات » • فكانت تسمى بهذا الاســم الخاطىء الذى تخلينا عنه اليوم كلية •

---

(١) محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، من ص ٦٢ ــ ٦٥

(٢) كذلك الحال فى اللغات الأجنبية : فى الانجليزية حيث كان يطلق عليها اسم Superstitions ثم أصبحت تسمى Folk Beliefs وفى الالمانية كانت تسمى أيضا Aberglaube (أى خرافات) ثم تخلى الباحثون عن هذه التسمية وأصبحت تسمى الان Volksglaube أيضا . وهكذا .

وتتميز المعتقدات الشـــعبية ببعض الخصائص التى تميزها عن سائر الأنواع الشعبية الأخرى ، « فاللغة الشعبية » تنطق ، وتكتب ، وتتطلب وجود شريك ليتم معه حديث ومجتمع يتفق على رموز هـــذه اللغة ، كذلك الزى الشعبى ، أو الحلى وأدوات الزينة كلها تســـتمد قيمتها من اظهارها للناس واعلانها ، والعادات الشعبية لابد أن تمارس، فتظهر بالضرورة على المـــلأ •• أما المعتقدات الشعبية ـــ فهى على خلاف هـــذه العناصر الشعبية ـــ أصعبها كلهـــا فى التناول وأشقها فى الدراسة والبحث ، لأنهـــا خبيئة فى صـــدور الناس ، وهى لا تلقن من الآخرين ، ولكنها تختمر فى صدور أصحابها وتتشكل بصورة ـــ مبالغ فيها أو مخففة ـــ يلعب فيها الخيال الفردى دوره ليعطيها طابعـــا خاصا • وهى مع تمكنها فى أعماق النفس الانسانية موجودة فى كل مكان سواء عند الريفيين أو الحضر ، عند غير المثقفين كمـــا عند الذين بلغوا مرتبة عالية من العلم والثقافة ، وصاروا يخضعون فى حياتهم وفكرهم للأسلوب العلمى • وهذه الحقيقة الأخيرة جديدة نسبيا على البحث العلمى ، حيث كان أبناء القرن التاسع عشر يعتبرون أن التفكير قبل المنطقى خاصية مميزة لطبقات معينة ، هى الطبقات الدنيا أو الشعبية ، على حين أن الطبقات العليـــا أو حملة الثقافة الراقية يتميزون بتفكير منطقى خالص ، أى أنه لا يعرف المعتقدات الشعبية • ولكن كما قلت أنه ثبت منذ نهاية الربع الأول من القرن العشرين فساد هذا الرأى ، وأن المعتقدات الشعبية موجودة ـــ ولكن بدرجات متفاوتة بالطبع ـــ فى كافة الطبقات وعلى كافة المستويات •

ومن الخصائص المميزة للمعتقدات الشعبية أننا نصادف فى هـــذا المجال ـــ أكثر من أى ميدان آخر من ميادين التراث الشعبى ـــ ما يعرف بالأفكار أو المواقف الانسانية العامة ، أو ما يعرف بالأفكار الاساسية(٣)

---

(٣) الفكرة الأساسية Elementargedanke فى رأى باستيان Bastian هى أن شكلا من اشـــكال الفكر شائع بين الناس ، او يمكن أن ينشأ آليـــا وبشكل مستقل عن أفكار أخرى مشابهة فى بيئات ثقافية أخرى ، وذلك بسبب الوحدة النفسية بين البشر . وقد صاغ باستيان هذا المصطلح فى عام =

على حين نجد أن العادة الشعبية ، كالاحتفال ببداية العام أو بمناسبة من المناسبات ، مهما كانت بدائيتها وبساطتها تحمل بصمات شعب معين ، وتعبر عن شخصيته ، العادة دائما بنت شعب معين ، ومنطقة معينة ، وتراث تاريخى معين .

ومن المعتقدات التى تربطها أكثر من رابطة قرابة نوعية — وان كانت مستقلة من حيث نشأتها — تلك الأفكار والأحاسيس التى تحرك الناس ازاء الظواهر الطبيعية العادية والشاذة ، كتصورات الناس عن الزلازل ، والبرق ، والخسوف ، والشهب .. الخ وكذلك تصورات الناس عن أسرار بعض الظواهر الفيزيقية والنفسية : كالأحلام ، والنوم ، والميلاد ، والموت ، ورؤية المستقبل بأنواعها ووسائلها المختلفة. وهناك شواهد عديدة على كثير من أوجه التناظر بين المعتقدات الدائرة حول الروح وأشكالها ، وحول قوة الحياة أو مبدأ الحياة وعن أماكن تواجدها فى الجسم الانسانى (كالرأس ، والجمجمة ، والقلب ، والقدمين ، واليدين ، ورفات الجسد ، والدم ، واللعاب ، وقلامة

= ١٨٦٠ ، الا ان فيلهلم جريم W. Grimm كان قد عبر عن الفكرة نفسها قبل ذلك بأربع سنوات . وكتب يقول فى مقدمة المجلد الثالث من كتاب « حكايات البيت والأطفال » : « هناك بعض الظروف التى تبلغ حدا من البساطة والطبيعية يجعلها تتكرر فى كل مكان . كما أن هناك أفكارا تنبثق من تلقاء نفسها » . وقد قدم لنا بواس Boas — الذى كان على دراية طيبة بنظريات باستيان — عرضا مختصرا وواضحا لمفهوم الفكرة الأساسية قال فيه : « ان من شأن تصنيف التجربة — كما تتضح بصفة خاصة فى انفصال الشيء والصفة واعادة تجسيد الصفات ، أن يؤدى على الفور الى اشكال فكرية عامة تعد تعبيرا عن العمليات العقلية نفسها برغم تنوعها الشكلى . ويندرج تحت هذه الفئة أيضا الظهور العام للاختراعات والمعرفة الموضوعية عن العالم ونتاج العمل البدنى والمعرفة الميتافيزيقية الراجعة الى مناهج التصنيف والمعرفة الدينية القائمة على استجابة الانسان العاطفية للقوى التى تتحكم فيه ، والتى يتحكم هو فيها وتقنين الأسلوب الفنى ، وأخيرا الأخلاق » .

قارن : ايكه هولتكرانس ، قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ترجمة الدكتورين محمد الجوهرى وحسن الشامى ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الثانية ، ص ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

الأظافر ، والخلاص « خلاص الوليد » .. الخ) . فهذه الظواهر جميعا مما يمكن أن نطلق عليه اسم « النظائر الثقافية » ، وأعنى بها ظواهر ثقافية متشابهة توجد فى مختلف أجزاء العالم ، وهى لا ترجع كلها بالطبع الى النمو المتوازى Parallel Development ، وانما ترجع كذلك الى بعض العمليات الثقافية الأخرى كالتقارب والانتشار(٤) . كما نصادف الأرواح ، والشياطين ، والقديسين ، والفتش Fetische عند معظم الشعوب تحت أسماء مختلفة ، ولكن جوهرها وطبيعتها واحدة ، أو شديدة التشابه ، وكذلك الطلسم ، والحجاب .. الخ . كما يندرج تحت تلك الفئة العامة من المعتقدات المفاهيم والتعاليم المتعلقة بالتحاشى (كالتابو) ونقل القوة المقدسة عن طريق الملامسة ، أو الارتباط أو غير ذلك ، (ويمكن أن نعثر على كثير من هذه النظائر فى ميدان الطب الشعبى) .

ويتوسل الانسان الى القوى العليا ، كالآلهة أو الشياطين أو الفتش Fetische عن طريق الصلاة ، كما يسترضيها بواسطة الأضاحى والقرابين ، ويتوسل اليها بالنذور والحج والزيارة ، ويستعين بها للحصول على البركة ولتحقيق أغراضه من العمليات السحرية التى يمارسها . ويعرف التراث السحرى آلاف الصيغ والدعوات للعن القوى الشريرة أو استرضاء القوى الخيرة واستعدائها على الشر .

كذلك تستخدم الأحجار ، والنباتات ، والحيوانات ، والنجوم والأشكال ، والصور ، والكلمات ، والتراتيل ، والأفعال فى هذا الصدد للتأثير — فوق الطبيعى — على تلك القوى فوق الطبيعية ، واخضاعها لارادة الانسان أو اتقاء شرها .

---

(٤) انظر مادة النظائر الثقافية Cultural Parallels فى قاموس مصطلحات الاثنولوجيا والفولكلور ، ص ص ٣٤٩ — ٣٥٠ .

وأثبتت علوم التاريخ القديم ، والأديان المقارنة والأنثروبولوجيا وغيرها أن « العذرية » كثيرا ما تكون فى معتقـدات وطقوس جميـع الشعوب تقريبا شرطا أساسيا قبل الاقدام على بعض الأفعـال الدينية والسحرية(٥) • ويصدق نفس الكلام على معظم الشروط والاجراءات الأخرى التى تتطلبها أو تحبذها الطقوس والأعمال السحرية المختلفة ، كالصمت ، والصوم ، وخلو المعدة من الطعام ، والعرى ، الخ(٦) •

أما أكثر العناصر الاعتقادية الشعبية انتشارا سواء فى المـاضى والحاضر ، فى العالم القديم والجديد ، عند الشعوب البدائية والمتقدمة فهى أساليب التنبؤ بالمستقبل ومحاولة استطلاع الغيب (الكهانة ، والتنبؤ ، التفاؤل والتشاؤم •• الخ) • والملاحظ أننا نصف كثيرا من هذه المعتقدات الشعبية بأنها لا تاريخية ، بمعنى أنها لا تنتسب الى مرحلة تاريخية معينة أو أنها من صنع فرد بعينه ، على نحو ماننظر الى بعض منتجات الفن الشعبى ، التى توصف بهـذه السمة أيضـا • ولكن رغم هذه الحقيقة العامة الا أننا يجب أن نطرح على أنفسنا فى كل مرة نتصدى فيها لدراسة موضوع من موضوعات المعتقدات الشعبية سـؤالا عن تاريخها ، وعن ظروف العصر الذى ظهرت فيه ، والمؤثرات التاريخية التى عدلت فيها ••• الخ ذلك من مشـكلات التحليل التاريخى • ففى معتقداتنا الشعبية شرائح من هذا النوع الانسانى العام (اللاتاريخى) ،

---

(5) Vrgl. O. Erich und R. Beitl (hrgs) Worterbuch der deutschen Volkskunde; Alfred Kroner Varlag; Suttgart; 1955; pp. 795-799. bes p. 797.

(٦) تناولنـا هذا الموضوع بالتفصيل فى الفصـل الثالث من رسـالتنا للدكتوراة ، انظر :

Mohamed El Gawhary; Die Cottesnamen im magischen Gebrauch in den al-Buni zugeschriebenen Werken; Dissertation. Bonn; 1968.

رسالة دكتوراة منشورة . ويتنـاول الفصـل المذكور شروط الممارسة السحرية وأركانها .

وشرائح من الحضارة الفرعونية ، وأخرى من الحضـــارة القبطية ، وغيرها من الحضارة الاسلامية ، وغيرها من حضارات الشعوب الأخـــرى التى اختلط بها المصريون على طول تاريخهم (كالعبريين ، والفرس .. الخ) . وهو موضوع تناولناه بشىء من التفصيل فى الفصـــل التاسع من الكتاب الأول .

ثانيا ــ الطابع المصرى لهذه المعتقدات :

سيلاحظ القارىء أن أغلب المعتقدات التى نتعرض لها فى هــذا الكتاب ارث مصرى مشترك ، يؤمن به الشعب على اختلاف فئاته وبيئاته، بل وعلى اختــلاف أديانه أحيانا رغم تعــارض أكثر تلك المعتقدات ــ خاصة فى تفاصيلها ــ مع العقائد السماوية • فنجد المسيحيين يتخذون بعض معتقدات المسلمين الشعبية ، والعكس أيضا • اذ ترى بعض المسلمين يشعلون شمعة فى كنيسة مار جرجس بمصر القديمة (القاهرة) أو سانت تريز بشبرا أو يشاركون فى مولد أحد القديسين• وتجد مسيحيا يوزع الفول النابت عند مسجد السيدة زينب أو الحسين وفاء لنذر ، كما قد يشارك مشاركة كاملة فى احتفالات مولد أحد الأولياء المسلمين كالسيد البدوى (فى طنطا) •

وقد لفتتت تلك الظاهرة نظر وليم لين ، فكتب يقول : « وهناك ظاهرة غريبة فى خلق المصريين وغيرهم من الشرقيين ، وهى أن المسلمين والمسيحيين واليهود يتخذون خرافات بعضهم بعضــا ، بينما يمقتون العقائدالأصلية»(٧)• ويشير الىأنالمسلمينقد يستخدمونعند المرضقسس النصارى واليهود للدعاء لهم • وكذلك النصارى واليهود يدعون الأولياء المسلمين للغرض نفسه • ومن المألوف أن ترى المسيحيين يترددون على الأولياء (الأحياء) ، فيقبلون أياديهم ، ويسألونهم الدعاء والنصح ، ويجزلون لهم المــال والعطايا(٨) •

وان دلتنا هذه الظاهرة على شيء فانها تدلنا على أن أغلب المعتقدات

---

(٧) وليم لين ، المصريون المحدثون ، عاداتهم وشمائلهم ، ترجمة عدلى طاهر نور ، الطبعة الثــانية ، القاهرة ، دار نشر الجامعــات ، ١٩٧٥ ، ص ٢٠٧ .

(٨) المرجع نفسه ، نفس الصفحة .

الشعبية التى سنعرض لها تستمد جذورها من مصادر أقدم من الدين الرسمى (مسيحية أو يهودية أو اسلامية) وأسبق عليه فى الوجود • وأنه اذا بدا لنا أن بعض هذه المعتقدات يتفق — فى بعض جزئياته العارضة — مع مبادىء الدين ، فان هذا الاتفاق انما هو ثمرة عملية تكيف أو مواءمة متعمدة لجأت اليها العقلية الشعبية كى تضمن للمعتقد الشعبى (ذى الأصل السابق على الدين أو قل ذى الاصل الوثنى) البقاء وسط بيئة الدين الجديد ويضمن له اقرار رجال هـذا الدين • ولكنه فى حقيقته وجوهره ما زال تعبيرا عن عنصر أقدم فى شخصية هذا الشعب • ومن هنا لا يشعر ابن أحد الأديان بحساسية كبيرة أو غضاضة واضـحة فى ممارسة أحد معتقدات أبناء دين آخر • لأن المعتقد فى ذاته انمـا يستجيب لعنصر أصيل كامن فى شخصية هذا الانسان البسيط الذى لم يدرك من تعاليم دينه سوى القشور أو الظواهر السطحية والاسمية فقـط •

ومن الطبيعى — انطلاقا من هذه المقدمات — أنه كلما ازداد حظ الانسان من الثقافة الدينية الحقيقية كلما تردد فى التسليم بتلك المعتقدات الشعبية ، وكلما ازداد بالتالى وعيا بالفروق بينه وبين أتباع الأديان الأخرى • ولذلك تكاد تنحصر تلك الظواهر التى نتحدث عنهـا — أقصد ممارسة معتقدات الأديان لبعضـها — بين القطاعات الشعبية الدنيا التى يمكن أن نقول فى حقها أنها هى القطاعات الأكثر بعدا عن التفقه فى أمور دينها •

ثالثا ــ المعتقدات الشعبية والدين :

من ا لمؤكد أن النقطة السابقة دفعت ــ وما زالت ــ رجال الدين الى اتخــاذ مواقف معينــة من المعتقدات الشعبية • لأن مثــل هؤلاء المتخصصين فى دراســة الدين يدركون فى أغلب الأحيــان مدى عمق التعارض بين الموقف الأساسى للعقيدة الدينية التى يعرفونها ويؤمنون بها وبين الموقف الأساسى الذى تنهض عليه تلك المعتقدات الشعبية • ثم هم فوق هذا يدركون ــ ربما أكثر من غيرهم ــ مدى تأصل وترسخ تلك المعتقدات فى صدور الناس ، خاصة القطاعات الشعبية • وان كان يزعجهم بدرجة أشد ، أن يجدوا لها بعض الرواسب والمكونات فى فكر وســلوك الطبقات المتعلمة ، أو القطاعات الأعلى فى المجتمع على نحــو ما أوضحنا •

ولهذا السبب كانت المعتقدات الشعبية هدفا دائما لحملات رجال الدين ، كما هى أيضا هدف لحملات مفكرى التنوير وباعثى النهضات • وذلك لأن هؤلاء وأولئك يتصورونها عقبة فى سبيل تحقيقهم لرسالتهم• وقد حاولنا على امتداد معالجتنا للمعتقدات فى هــذا الكتاب أن نلتزم أسلوبا موضوعيا علميا ، ونتجنب الانزلاق الى مهاجمة أو تأكيد هذا الموقف الاعتقادى أو ذاك • وسأضرب على ذلك أمثلة واضحة •

سوف يلمس القارىء بوضوح فساد بعض المعتقدات والاتجاهات والآراء والتصورات فسادا منطقيا أو علميا • كما قد يبدو للخاصــة أحيانا تناقضها مع تعاليم الدين الصحيح • ومع ذلك فلسنا بحاجة الى أن نؤكد قبل كل عبارة من هذا النوع أن « ذلك حسب زعمهم » ، أو «فى تصورهم» •• الخ تلك العبارات التى تبرىء مؤلف الكتاب من شبهة أن يكون مشــاركا لهؤلاء الناس فى بعض المعتقــدات « الوثنية » أو « الخاطئة » • فهذا الاهتمام فى الحقيقة لم نفكر فى احتمال توجيهه الينا ، لأننا من قبل ومن بعد انما نجرى دراسة فى الثقافة الشعبية لبعض قطاعات المجتمع عندنا أو عند غيرنا من الناس ، ولا نعبر فى أى موضع

عن معتقد شخصى أو وجهة نظر خاصة أو فكرة نؤمن بها • الا اذا نص على ذلك صراحة فى موضعه وبوضوح • فلا ينتظر منا القارىء أبدا أن نتحفظ عند كل عبارة نوردها ، والا لامتلأ الكتاب بالتحفظات وعبارات التحذير والذم والادانة • وهو أمر نبرىء منه هـذا البحث العلمى الذى نقدمه للقارىء •

ويرتبط بهذه القضية مشكلة أخرى خاصة بالأحاديث وحكايات الصحابة التى يسـوقها مؤلفو الكتب الشعبية التى رجعنا اليهـا أو يسوقها الرواة بالنسبة للروايات الشفاهية • فنحن لم نبذل أى جهـد لتحقيقها أو التثبت من صحتها ، وذلك كى نوفر على أنفسنا الدخول فى مناقشات وخلافات فقهية ، فذلك أبعد ما يكون عن اهتمام الكتاب •

لأنه ليس مدار البحث هو معرفة وجهة نظر الدين الصحيح ، انما الأصل هو معرفة التصـور الشعبى ومحاولة الانسـان الشعبى اضفاء طابع اسلامى على تصوراته انما يعكس مدى عمق هذا التصور فى نفس صـاحبه ، كما يشـير الى اختلافه أحيانا عن وجهة النظر الاسلامية الصحيحة ومحاولة العقلية الشعبية تقريبه الى الاسـلام أو اضفاء الصبغة الاسلامية عليه • كما أن تلك الشواهد الاسـلامية يقدمها أحيانا مؤلفو الكتب والمخطوطات الشعبية لتيسير تقبلها عنـد الناس والتمكين لها فى عقولهم وقلوبهم •

المهم أن القارىء ينبغى ألا ينتظر منا أن نتخذ موقفا من تلك الشواهد الدينية لتمحيصها من أجل تأييدها أو رفضها • وكل ما يمكن أن نطالب به هو أن ننسبها الى المصدر الذى أخذت عنه ، والعـهدة على صاحب الرواية كاتبا أو راويا •

رابعا ــ طبيعة الشواهد والنماذج المستخدمة فى هذا الكتاب :

سبق أن أكدنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب على أن المعلومة التى يثبتها الباحث فى علم الفولكلور لا قيمة لها ان لم ينسبها الى المصدر الذى أخذت منه والمكان الذى جمعت فيه وتصدق عليه والزمن الذى ترددت فيه أو نقلت عنه .. الخ(٩) .

وسوف يلمس القارىء لهذا المجلد الثانى أن هنـاك العديد من المعلومات الفولكلورية التى جاءت دون هذا الاسناد المتنوع لأعماقها التاريخية والجغرافية .. الخ . وليس يعنى ذلك بحال من الأحوال أننا نتخلى عن القواعد التى نحض زملاءنا وتلاميذنا على الالتزام بها ، وانما ترجع هذه الظاهرة الى الطبيعة الخاصة للكتاب الذى بين أيدينا . فنحن لسنا بصدد تقديم تقرير عن دراسة ميدانية ، أو كتابة بحث حـول موضوع واحد جمع وفق خطة واحدة يصف ظاهرة معينة . وانمـا نحن بصدد مدخل الى الموضوع نريد أن نبين للقارىء ــ دارسا أو باحثا ــ أن هذا الموضوع أو ذاك يمثل محورا لعدد من المعتقدات أو الممارسات الشعبية . والسبيل الى ذلك هو تقديم عدد من الشواهد التى توضـح هذا أو تدل عليه .

وليس بلازم فى رأينا ــ ولا هو ممكن ــ أن نستقى كافة شواهدنا من دراسات ميدانية على الواقع المصرى أو غيره من واقع البلاد العربية (فان فعلنا لكان واجبا علينا أن نلتزم أصول الدراسة الميدانية ونطبق قواعدها التى حددناها) . ولكن أمامنا عوضا عن هذا تراثا هائلا من معتقدات الشعوب وممارساتهم التقليدية نسـتطيع أن نستمد منهـا شواهدنا ونختار منهـا أمثلتنا . **والهدف فى كل تلك الأحوال ليس أن**

---

(٩) لمزيد من التفصيل انظر الباب الخاص بالدراسة الميدانية فى :
محمـد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

نزيد القارىء العربى معرفة بتراث بلاد أجنبية أو حضارات درست ، وانما الهدف الأكيد أن نضرب الأمثال واضحة فتكون هذه الشـــواهد بمثابة نقاط لتفتيح الموضوع أمام القارىء الباحث ، تأخذ بيده وتلفت نظره وتوجهه وتيسر ما قد يبدو كلاما مجردا عسير الادراك • بهـــذا الفهم يجب أن ننظر الى الشواهد التى يضمها هذا الكتاب من ثقافات غير عربية أو غير معاصرة • وان كنا قد حاولنا ما وســـعنا الجهد أن نقدم أكبر قدر من الشواهد العربية سواء كانت مستقاة من دراسات ميدانية ــ لنا أو لغيرنا ــ ومن مدونات عربية •

وليكن رائدنا فى كل ذلك أن وحدة الثقافة الانسانية حقيقة نحن أول من يؤمن بها ويقيم الدليل عليها ، وأن ثقافات الشعوب المختلفة كالأوانى المستطرقة تؤدى كل منها الى الباقيات وتأخذ عنها فى نفس الوقت •• الثقافة الانسانية أخذ وعطاء ، فتراث زنوج أفريقيا السوداء حى فى الأمريكتين ، والتراث الأوروبى يمشى بيننـــا فى بعض بلادنا العربية ، وموتيفات آسيوية صفراء تعيش فى الجزيرة العربية ••• الخ •

ولكننا نؤكد لقارئنا العربى فى النهـــاية أن ثراء هـــذه الشواهد وتنوعها ليس هدفا من أهداف الدراسة ، ولكنه كما أوضحنا نتيجـــة ضرورية لملابسات الدراسة العلمية لتراثنا الشعبى ومبلغ تقدمها • لأن هدفنا الأول والأوحد هو التصدى ــ فى ضوء هذا المدخل ــ لدراســـة تراثنا الشعبى العربى وفهم أبعاده ومكوناته •

أما فيما يتعلق بالشواهد المحلية (عربية أو مصرية) فقد انقسمت بطبيعة الحال الى نوعين أساسيين : نوع مستمد من مشاهدات واقعية ودراسات ميدانية ، ونوع مســـتمد من كتب التراث الشـــعبية وغير الشـــعبية • ولا يخفى أن بعض الدراســـات والكتابات الفولكلورية الحديثة قد لا تضم بيانات دقيقة عن مصدر المعلومة ومكانها وزمانها •• الخ • حسب ما تقضى به قواعد الدراسة العلمية • كما أن كتب التراث قد لا تضم شواهد عن المكان أو المصدر أو الزمان بالتحديد •

ولكن ذلك لا يقلل فى رأينا من قيمة هذه الشواهد • ذلك لأننا بصدد تقديم عرض متكامل قدر الامكان للمعالم الرئيسية لتراثنا الشعبى دون احاطة بكل التفاصيل • ونحن نعمل فى تأليف هذا الكتاب بأجزائه الخمس وفى ذهننا أنه مجرد مرشد أو حافز للباحثين لعله يوجههم الى اجراء دراسات بأنفسهم لدراسة تراث مجتمعهم وثقافة شعبهم والوقوف عليها حسب قواعد المنهج العلمى فى دراسة التراث الشعبى •

فلتكن تلك الشواهد — أو قل الاشارات — بأنواعها العالمية والمحلية مجرد مثيرات ومحفزات للباحث ، ولو فهمناها فى تلك الحدود ، لأعفينا أنفسنا من كثير من المشكلات العلمية ، بالنظر الى مستوى البحث الراهن فى علم الفولكلور فى بلادنا •

خامسا ــ لمــاذا يتضارب التفسير الشعبى للظاهرة احيانا ؟

من الملاحظات الملفتة للنظر والجديرة بالتأمل أن نفس الظاهرة يمكن أن تجد لها تفسيرين متضاربين فى المعتقد الشعبى ، أى تعنى شيئا أو عكسه تماما • كما نرى هنا أن تقليم الأظافر فى يوم معين يشــفى آلام الأسنان أو يسببها • وتلك كما قلت ملاحظة عامة يمكن أن نلمسها فى عديد من الظواهر التى تقدم لنا المعتقدات الشعبية تفسيرا لها : فالتوائم قد تعــد نذير شؤم وربما تعد أيضا فألا طيبا ومصدرا للقوة الجسمانية والروحية الفائقة ، ورؤية القطة السوداء فى الصباح قد تدعو صاحبها الى التفاؤل ولكنها يمكن أن تجعله يتشاءم أشد التشاؤم ، ويوم الجمعة هو أفضل الأيام ولكن به ساعة نحس ••• الخ من الشواهد التى لا نستطيع أن نحصرها لأنها تــكاد تكون ظاهرة فى الغالب الأعم من المعتقدات الشعبية•

ولكن الأجدى أن نتساءل عن تفسير لهذا : كيف يمكن أن يعنى نفس الشىء التفاؤل والتشاؤم أو المرض والشفاء أو الخير والشر ؟ لعل أبرز وأقرب التفســيرات التى تقدمها كتب الســحر وكذلك المشتغلون بالمعتقدات على نحو احترافى أن ذلك يتوقف على طالع الشخص نفســه الذى يجرى له ذلك الحادث أو تجرى عليه تلك الظاهرة ، حسب برجه ، وحسب اسمه ، وحسب أعمــاله ، بل حسب درجة تقــواه ••• الخ ملابساته وظروفه الخاصة • فهى التى تحدد ما اذا كانت النتيجة أو الأثر سيكون فى هذا الاتجاه أو فى عكسه • وربما يدخل فى ذلك عدد آخر من المتغيرات (الموضوعية) أى التى لا دخل لصاحب المشكلة فيهــا : كالوقت الذى تتم فيه الظاهرة ، أو المشتركين فيها ان كانت تضم أطرافا آخرين ، أو المكان الذى تحدث فيه •• الخ ذلك من الظروف والملابسات التى تخرج عن خصائص الفرد الشخصية •

ولكن هناك دون شك تفسيرا لنسمه علميا أو هو تفسير موضوعى يمكن أن يقــدمه الباحث العلمى من منطق الملاحظة الموضوعية لهــذه

الظاهرة وظواهرها المشابهة ودون أن ندخل فى متاهات وصف العقلية الشعبية بالتناقض أو التضـارب أو انعـدام المنطق وغير ذلك من الصفات التى أطلقها عليها العالم الفرنسى ليفى برول •

نحن نعرف من دراستنا لعالم الأشياء المقدسة فى الديانات المختلفة بدءا من التوتمية حتى بعض الديانات الراقية أن المقدس بطبيعته يمثل قمة النقاء ومصدر الخطر والرهبة ، وهو فى ذروة التقديس ولكنه فى نفس الوقت أشد الأشياء تحريما ، هو غاية ما يطمح الفرد العبد الى الوصول اليه والاندماج معه وأشـد ما يخشاه ويتجنبه أو يجب عليه عدم الخوض فيه أو الاقتراب الشديد منه • ونحن نعرف أن الأديان التوتمية قد حلت هذه المشكلة على نحو فريد ، حيث تسقط تلك المحرمات لفترة من الوقت ربما كل عام ، وربما من حين لآخر حسب ما تمليه بعض الظروف العـابرة أو الثابتة •• الخ فيبـاح للفرد العادى أن يتجاهل المحرمات ويسقط عن الأشياء المقدسة رهبتها لفترة ويحقق الفرد معها أقصى درجة الاتحاد والاندماج ، فان كانت حيوانا أو نباتا يأكله ، وان كانت حجرا يقبله ويلمسه •• الخ •

فالمقدس اذن هو بحكم وضعه وصفاته كيان مزدوج فى نظر المعتقد الشعبى على مدى العصور ، لكى يظل بعيدا عن العالم الدنيوى ولكن يظل يمثل فى الوقت نفسه حلما جاذبا للفرد يدعوه الى الاندماج فيه والاتحاد معه •

سادسا ــ خطــة الكتاب :

لقد وضعت لهــذا الكتاب ــ أقصد الجزء الثانى ــ خطة محددة كى لا نتوه مع المادة الضخمة المتوفرة لدينا عن المعتقــدات الشعبية ، سواء المنشور منها فى دراســات علمية ســابقة ، أو وارد فى المدونات بأنواعها المختلفة ، أو المستقى من دراستنا الميدانية ودراسات زملائنا وتلاميذنا حول الموضوع • فقد أردت له أن يكون بمثابة تقديم وتعريف بموضوعات المعتقدات الشعبية ، فلا هو مطالب بحصر كل الدراسات وتقديم كل المــادة ، ولا هو فى موقف يسمح له أن يقول الكلمة الأخيرة حول ميدان هام ومعقد وخصب كميدان المعتقدات الشعبية •

ولذلك كانت بداية التقــديم ومدخله الأســاسى هى العــرض التاريخى لتراث هذا المعتقد أو ذاك ، والخطوط العريضة لتطوره ســواء على المستوى الانسانى العالمى ، أو على مستوى المجتمع المصرى حسب الأحوال • ثم يأتى التركيز بعد ذلك وفى المرحلة الثانية على ابراز الخطوط العريضة وبعض الملامح الرئيسية المميزة لهــذا النسق الاعتقادى فى مجتمعنا المصرى • وقد استفاد هذا الجزء فى كل باب من أبواب الكتاب من مادة المدونات ومن المــادة المستقاة من العمل الميدانى •

ومع ذلك فان الهدف البعيد لمثل هذا العمل يظل قائما لم يشــبع اشباعا كاملا ، لأنه انما يستهدف فى الحقيقة تشجيع الباحثين على طرق هذه الموضوعات وتناولها تناولا علميا وفق أحدث النظريات والمناهج وأساليب البحث المتبعة فى علم الفولكلور • وقد وضعنا لذلك أداة هامة هى « دليل العمــل الميدانى لجامعى التراث الشعبى » ضــمناه أبرز موضوعات الدراسة وأهم القضايا الجديرة بالملاحظة والتنقيب(١٠) • وقد مضى على صدور هذا الكتاب ــ دليل المعتقدات الشعبية ــ أكثر من

---

(١٠) انظر : الدراسة العلمية للمعتقدات الشعبية ، اشراف الدكتور محمد الجوهرى ، الطبعة الاولى ، دار الكتاب للتوزيع ، القاهرة ، ١٩٧٨ .

عامين ، ونفـذت طبعته ، وافترضت أنه ليس متاحا لكافة مسـتخدمى هذا الكتاب من الباحثين والطلاب • ولهذا لخصت فى فصل فى آخر كل باب أبرز رؤوس الموضوعات التى يحويها الدليل عند دراسـة كل ميدان من ميادين المعتقدات • وعلى هذا المنوال تقريبا سارت خطة كل باب من أبواب هذا الكتاب •

أما عن خطة تقسيم موضوعات المعتقدات فقد عرضت فى الجزء الأول من كتابنا (علم الفولكلور) تصنيفا للمعتقدات الشـعبية المصرية من تسعة عشر بندا ، على النحو التالى : —

١ — الأوليـاء •
٢ — الكائنات فوق الطبيعية •
٣ — السـحر •
٤ — الطب الشعبى •
٥ — الأحـلام •
٦ — حول الجسم الانسانى •
٧ — حول الحيوان •
٨ — النباتات •
٩ — الأحجار والمعادن •
١٠ — الأماكن •
١١ — الزمن •
١٢ — الأوائل والأواخر •
١٣ — الاتجاهات •
١٤ — الألوان •
١٥ — الأعـداد •
١٦ — الانطولوجيا •
١٧ — الروح •
١٨ — الطهـارة •

١٩ — النظرة الى العالم[١١] •

ولم يكن من الممكن ، ولا من الضرورى أيضا ، أن يتضمن كتاب كهذا تسعة عشر بابا (داخل كل باب عدد من الفصول والملاحق) ، فذلك يحوله الى موسوعة ويخرج به عن طبيعته فى التعريف والتقديم • لذلك اخترت بعض الموضوعات ، هى فى الحقيقة أهم ميادين المعتقدات الشعبية ، تاركا الكتابة فى بقية الميادين لدراسات فرعية مستقلة أو مقالات تنشر فى زمان وأماكن أخرى •

وسيلاحظ القارىء أن هناك بعض موضوعات هذه القائمة قد أدمجت فى باب واحد ، بينما انفردت موضوعات أخرى ، بباب مستقل لكل منها ، والمعيار الوحيد هنا هو الاهمية النسبية ، ووفرة الدراسات ، وشمول الموضوع • فقد أفردنا لكل من الاولياء ، والسحر ، والاحلام ، والكائنات فوق الطبيعية ، والطب الشعبى بابا مستقلا • بينما تضمن باب واحد موضوعات المعتقدات المتعلقة بالحيوان ، وبالانسان ، وبالعناصر الطبيعية • وتضمن الكتاب فصلا مستقلا عن الزار لم يكن واردا فى تصنيفنا الذى سبق عرضه • وهو فى الحقيقة ميدان خاص يحوى عناصر من المعتقدات ، كما يحوى عناصر من الفنون الشعبية ، ولكنه أقرب الى المعتقدات وأدخل فيها على أى حال •

---

(١١) محمد الجوهرى ، علم الفولكلور ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٨ ، ص ٦٥ •

وبعـــد :

فهذا كتاب يبحث فى موضوعات أغلبها يكتب فيه كتابة علمية للمرة الاولى باللغة العربية ، وجميعها كان وقفا على المستشرقين والاجانب •

ولاشك أن صدور هذا اللون من الدراسات قد يصدم مشاعر البعض ممن لا يملكون ناصية البحث العلمى فى العلوم الانسانية ، والذين مازالوا أسرى معتقداتهم التقليدية والقيود الفكرية التى فرضها عليهم أسـلوب بال من الفكر والحياة • أما أولئك الذين يطمحون الى تدبر حقيقة ثقافة مجتمعهم ، كمـا تتمثل فى معتقـدات القطاعات الشعبية والرواسب الاعتقادية حتى عند الخاصة ، فلاشك أنهم سيرحبون أكبر الترحيب بمثل هذه المحاولة ، وسيقدرون الجهد الذى بذله المؤلف لتخطى حواجز نفسية عديدة كانت تحول دون اقدام كثير من العلماء الاجتماعيين المصريين على دراسة هذه الموضوعات •